مدخل: الشعب وعنف الدولة

تعد فضائح سنة 1986م وتداعياتها مؤشرًا لأولئك المهتمين بفهم المجتمع الأمريكي، خصوصًا أولئك الذي يأملون بتغيير سمة هذا المجتمع ومساره؛ فقد تسببت الفضائح، وإن بصورة مؤقتة على الأقل، ببعض الفوضى والانزواء من قبل المخططين لسياسة الدولة ومفكِّريها، وتسببت أيضًا في نزع المصداقية عن بعض السياسات العُنْفيَّة بعد رفع الغطاء عنها جزئيًّا؛ شجعت هذه التطورات حركات داخل أمريكا الوسطى باتجاه نوع من التسوية السياسية التي كان من الممكن جدًّا إبرامُها لو لم تكن الولايات المتحدة مصممة على فرض شروطها بالقوة؛ وحتى لو نالت هذه الخطوات نصيبًا من النجاح، ما كان لها أن تمهد من تلقاء نفسها الأرضية لمواجهة المشكلات العصية والعميقة التي تواجه مجتمعات أمريكا الوسطى؛ وهي مشكلات نجمت إلى حد كبير عن تدخل الولايات المتحدة سابقًا في المنطقة؛ حيث كانت الولايات المتحدة صاحبة النفوذ الأكثر تأثيرًا على امتداد القرن، ولكن إذا كانت العوائق المحلية فاعلة بما يكفي لإجبار دُعاة استخدام القوة في واشنطن، فمن المحتمل أن يؤدي ذلك إلى تأخير ظهور أسوأ صور الإرهاب، ويمكن أيضًا أن يفتح نافذة صغيرة تشكل فرصة لفتح المجال للجهود البنَّاءة من أجل تخطِّي إرث الماضي المرير.

تعد فضائح سنة 1986م بدورها هديةً للحركات الشعبية التي نشأت ونمت في ستينيات القرن العشرين، والتي لم يكتب النجاح للمحاولات التي بذلت من أجل ترويضها، بالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها رجال الأعمال والحكومة والنخب الفكرية في عصر ما بعد حرب فيتنام، هذه الحقيقة المهمة لن تكون موضوعًا تتناوله الكتب والمقالات، ولن يكون لها حتى موطئ قدم في التاريخ الرسمي، تمامًا كما أن الدرس المقارن المُستقى من سنيِّ حرب فيتنام لا يكاد يُذكَر داخل نطاق النظام الإيديولوجي المكرس لخدمة السلطة، ومع ذلك فمن الأهمية بمكان بالنسبة إلى المواطنين المهتمين بهذا الشأن أن يتأملوا بهذا الأمر بصورة مستقلة؛ لكي يعوا كيف يمكن للشعب أن يفرض تأثيره في سياسة الدولة.

خلال سنيِّ حرب فيتنام، أثَّر الشعب بصورة كبيرة في التأثير في سياسة الدولة بالرغم من أنه كان تأثيرًا غير مباشر؛ من الواضح أن ذلك التأثير لم يُعبَّر عنه عن طريق النظام

الانتخابي؛ ذلك أن التصويت بنسبة اثنين إلى واحد (لمرشح السلام) لم يردع ليندون جونسون وأعوانه من تنفيذ الخطط التي أدت إلى تصعيدٍ كانوا بصدد تطويره في الوقت الذي كانوا يفوزون في الانتخابات، بعد أن قطعوا وعدًا بعدم توسيع رقعة الحرب، لكن ومع ازدياد حدَّة الحرب وتفاقم حجم الدمار المرافق لها، وإرهاب الدولة والعدوان الأمريكي الصارخ[1]، ازدادت النقمة والاحتجاجات في أوساط الشعب، وأصبح الشعب من خلالها قوة لا يستهان بها؛ إذ استطاع منع الحكومة من إعلان النفير العام الذي كان لا بد منه من أجل ما تحوَّلَ إلى حرب كبرى؛ فالجهود التي بُذلت من أجل شن (حرب البنادق والزبدة)؛ وذلك لتهدئة الشعب الذي بدأ بالتململ بصورة متزايدة، أدى إلى نشوء مشكلات اقتصادية خطيرة.

كل ما تقدم، شكَّلَ عاملًا أدى بالعناصر النخبوية إلى الحث على تخفيض حجم التورط في فيتنام، أو إنهائه تمامًا بحلول سنة 1968م؛ تلقت أوساط النخب الفكرية العصيان العام، خصوصًا في أوساط الشباب بكثير من القلق بوصفه يمثل مشكلة خطيرة بحد ذاته مع حلول سنة 1968م؛ أما في أوساط البنتاغون، فقد ساد القلق حول حاجة الآلة العسكرية إلى تأمين عدد كافٍ من جنود الاحتياط؛ من أجل قمع الاضطرابات داخل الولايات المتحدة فيما لو ازداد حجم العدوان الأمريكي بصورة واضحة. الكلمة الفصل في هذا الصدد هي كلمة (واضح)؛ كان الخوف من الشعب هو ما أدى إلى التوسع في العمليات السرية في تلك السنين، وذلك استنادًا إلى المبدأ القائل بأن صيغة الديموقراطية المعتمدة لدينا تقضي بأنه إذا كان الشعب قد جانبَ السلبية، فإن على المؤسسة الحاكمة خداعه ـ من أجل مصلحته.

لقد كان انهيار المعنويات في صفوف القوات المسلحة في ساحات المعارك بتأثير العصيان المتصاعد داخل الولايات المتحدة مصدر قلق شديد في أوساط النخبة؛ وكان الدرس القاسي الذي تم تعلُّمُهُ أن من الخطأ استخدام جيش من المدنيين لخوض حرب استعمارية وحشية، بدلًا من استخدام قوًى من المرتزقة تُجنَّد محليًّا أو خارجيًّا، وهي الطريقة التقليدية التي كان يُعمَلُ بها في الماضي. هذه المشكلات أقنعت النخب الاقتصادية والسياسية بتغيير مسارها، خصوصًا بعد معركة (تيت) التي وقعت سنة 1968م، والتي ثبت بنتيجتها بصورة لا تدع مجالًا للشك أن النصر العسكري هو احتمال جَدُّ بعيد إذا لم يتم تصعيدٌ من النوع الذي لا يمكن للشعب أن يتقبله أو يغض الطرف عنه بسهولة.

توجد عوامل مشابهة ساعدت على كبح جماح تدخل الولايات المتحدة في أمريكا الوسطى في ثمانينيات القرن العشرين؛ فقد كان مستوى الرفض الداخلي أعظم، وكانت قاعدته أوسع وأشمل من أي مرحلة من مراحل الحروب التي شُنَّتْ في الهند الصينية؛ لذا لم يكن بمقدور إدارة ريغان تنفيذ عملية التحول من إرهاب الدولة إلى العدوان المباشر، كما فعل الثنائي كيندي وجونسون. لو كان الشعب الأمريكي في حالة همود، لكان بمقدور ريغان إرسال رجال المارينز بالطريقة نفسها التي اتبعها جونسون عندما تبين أنه من الضروري تجنب التهديد لمصالح الولايات المتحدة، المتمثل في الديموقراطية الوليدة في جمهورية الدومينيكان سنة 1965م، ولكان مشى على خطى كيندي الذي أعطى أوامر للقوات الجوية الأمريكية لقصف فيتنام الجنوبية وتدميرها؛ لمواجهة ما أطلقت عليه إدارته وصف (العدوان الداخلي) هناك. أشدُّ ما يثير حنق النخب الأمريكية أن العدوان المباشر يعيقُه عدو الدولة من الداخل، وأعني به الشعب في الداخل الأمريكي؛ أما اللجوء إلى وسائل غير مباشرة لشن عدوان فيجلب معه أخطار ومشكلات لا مفر منها؛ فالأساليب الملتوية هي أقل فاعلية من ممارسة العنف بصورة مباشرة. فوق هذا كله، وبالرغم من الولاء العام للمؤسسات الإيديولوجية، يوجد دائمًا خطر الفضيحة؛ فعندما لا يعود القمع ممكنًا، فستخرج إلى العلن بعض المعارضة من بين مجموعات حريصة على حماية سلطتها وامتيازاتها (أعني في مثل هذه الحال: الكونغرس)، ولا يقل خطورةً عما تقدم أن الفضائح تميل إلى التقليل من شأن الشعارات التي تستخدم من أجل تهدئة عامة الشعب، أعني على وجه الخصوص الشعار المشبع بالنفاق الذي رُفِعَ حول محاربة الإرهاب، والذي تسبب في طرحه بعض كبار قادة العالم الإرهابيين؛ لكن من الصعب قبول مثل هذا الشعار بعد أن ضُبِطوا متلبِّسين بالتعامل مع إيران.

كان العصيان الداخلي العامل الأساس الذي أجبر إرهاب الدولة على النزوع باتجاه العمل السري في ثمانينيات القرن العشرين، وقد أدى إلى حدوث مشكلات عندما كان أحد مظاهره يطفو على السطح، ويصبح باديًا للعيان كما حدث في فضائح سنة 1986م. سوف أعود لاحقًا إلى هذه التطورات الأخيرة وخلفياتها المباشِرة، لكن من المهم ألّا نسمح للنتيجة المركزية أن تُطْمَسَ في لُجَّةٍ من التفصيلات.

النتيجة الأكثر أهمية التي يمكن أن نستقيها من هذه الأحداث هي أنها تُظهِرُ مرة أخرى أنه حتى في أكثر المجتمعات غير المُسيَّسة؛ مثل المجتمع الأمريكي الذي لا وجود فيه لأحزاب سياسية

أو صحف معارضة خارج نطاق الطيف الضيق للإجماع الذي يتحكم فيه رجال الأعمال، هناك إمكانية للفعل الشعبي لأن يكون ذا تأثير لافت على مجرى السياسة، وإن تمَّ ذلك بطريقة غير مباشرة. كان هذا درسًا بالغ الأهمية مُستقًى من الحروب التي شُنَّت في الهند الصينية، وقد أُكِّد مرة أخرى من خلال تجربة حقبة ثمانينيات القرن العشرين فيما يتعلق بأمريكا الوسطى. وهذا الدرس يجب أن يبقى في الذاكرة كي يُفادَ منه في المستقبل.